أ. زكي الميلاد
رئيس تحرير مجلة الكلمة – المملكة العربية السعودية

دراسات ومقالات

موقف أخلاقي ضد الكراهية والكراهية الدينية

- ١ -

الكراهية.. المعنى والمفهوم:

من الملاحظ أن المجال التداولي لمفهوم الكراهية في الدراسات الفكرية والسياسية والتاريخية بصورة عامة، يعد حديثاً، ويرجع الاهتمام الواسع به على الأغلب إلى العقد الأخير من القرن العشرين، وقبل ذلك كان تداوله يكاد يتحدد وينحصر في نطاق خاص، هو نطاق الحياة الزوجية والعلاقة بين الزوجين.

وحين حاولت البحث عن تعريف علمي واصطلاحي لهذا المفهوم في كتب المعاجم، كالمعجم الفلسفي لعضو مجمع اللغة العربية بدمشق الدكتور جميل صليبا لم أجد ذكراً له، وهو ما نعده اليوم نقصاً فيه بحاجة إلى استدراك.

وبالعودة إلى بعض الدراسات النفسية، بوصف أن هذا المفهوم ينتمي في الأساس إلى حقل علم النفس، لم أجد أيضاً التعريف الذي أبحث عنه، حيث لم تدرج الكراهية كمفهوم مستقل ضمن قائمة التعريفات المتصلة بهذا الحقل، والقريبة منه، كالعدائية

والعدوانية والغضب والعنف وتأكيد الذات وغيرها، وجاء البعض على ذكره وبشكل عابر في إطار الحديث عن مفهوم العدائية.

وهكذا حين حاولت البحث عن تعريف لغوي لهذا المفهوم، وجدت أن معاجم اللغة القديمة على ثرائها وغناها اللغوي والاشتقاقي، كـ(لسان العرب) لابن منظور، و(معجم مقاييس اللغة) لأحمد بن زكريا، و(أساس البلاغة) للزمخشري، و(التعريفات) للشريف الجرجاني، وجدت أنها لا تسعفنا بشيء، ولا تقدم لنا إضافة مهمة، حيث عرفت المصدر (كره) باشتقاقات عديدة، لا تكاد تقترب من مفهوم الكراهية إلا بقدر بسيط للغاية، كالقول بأنه يدل على خلاف الرضا والمحبة.

وأمام المعاجم الحديثة، كـ(المعجم الوسيط) لمجمع اللغة العربية بالقاهرة، فهو أفضل حالاً من المعاجم القديمة نسبياً بشأن هذه المفردة، لكنه هو الآخر لا يضيف شيئاً مهماً يضيء في تعريف الكلمة، وما ورد فيه من تعريف هو (كَرِهَ الشيء كُرهاً وكَرَاهة وكَرَاهية: خلاف أحبه، فهو كريه ومكروه. وكرُه الأمر والمنظر كراهة وكراهية: قبح فهو كريه) [١].

أما المفاجأة المدهشة فكانت في النقص الفادح أو الغياب الفادح، للدراسات والمؤلفات التي تناولت فكرة الكراهية في المجال العربي، والكتاب الذي وجدته يبحث حول هذه الفكرة بهذا المسمى هو كتاب (فلسفة الكراهية) لراشد المبارك الصادر سنة ٢٠٠١م، ولا أدري إن كان هو الكتاب الوحيد في هذا الشأن باللغة العربية أم لا! قدم لهذا الكتاب عز الدين موسى واعتبره الفريد في بابه، وأشارالمؤلف إلى ذلك أيضاً حين تساءل هل الكراهية خلل طبع؟ ورأى أن ما يحمل على الدهشة أن يفاجأ الباحث حسب قوله بتلك الحقيقة المتمثلة في أن هذا الجانب من طبيعة النفس الإنسانية لم يول ما يتناسب مع مكانته وخطره من عناية، ويضيف أن الباحث يضنيه البحث في العثور على كتب وأبحاث أفردت لدراسة هذا الجانب بحثاً عن جذوره، وشرحاً لطبيعته، وتعريفاً بمعالجته [٢].

وتتأكد ملاحظة راشد المبارك حيث لم يأت على ذكر أي كتاب عربي آخر تحدث عن هذه القضية، وهذا ما حاولت تقصيه في كتابه، لكنه أشار إلى كتابين صدرا باللغة الإنجليزية، رجع إليهما واستفاد منهما، وهما كتاب (سجناء الكراهية) الصادر سنة ٢٠٠٠م لمؤلفه آرونت بيك، وكتاب (مولد الكراهية) الذي يحتوي حسب وصف المبارك على أحدث دراسات صدرت في هذا الشأن، قام بها فريق من علماء النفس البارزين والمشتغلين بالطب النفسي، وقدمت على شكل أوراق بحثية لندوة مؤسسة مارغريت.إس مالر للأبحاث النفسية، بمدينة فيلادلفيا بولاية نيوجرسي، وعقدت سنة ١٩٩٤م، وصدرت لاحقاً في كتاب بالعنوان المذكور.

ومن النتائج المهمة التي وردت في هذين الكتابين، والمضيئة لمعنى ومفهوم الكراهية، ما أشار إليه آرونت بيك في كتابه (سجناء الكراهية)، حيث اعتبر أن الكراهية تعمل بقانون واحد سواء كانت بين ألصق الأقارب مثل الزوج وزوجته، أو بين المتواجهين في ساحة الحرب، أو المتنافرين في معتقد.

ومن هذه النتائج كذلك ما جاء في كتاب (مولد الكراهية)، حيث أشارت إحدى الدراسات إلى أن الكراهية لا ترجع إلى عامل واحد بل هي حالة معقدة، وتشتد باشتداد الشعور بالأنانية، أو الشعور بالخوف، أو بالاضطراب النفسي.

وما ننتهي إليه أن الكراهية هي امتزاج موقف فكري مع حالة نفسية، وبعبارة أخرى هي موقف فكري يتلبس بحالة نفسية وتتجلى بهذا المظهر النفسي، الذي يغلب عليه التوتر والانفعال، وبشكل يُحدث تنافراً بين طرفي العلاقة.

والنتيجة أن الكراهية في كل صورها وتجلياتها لا تعبر عن موقف يرتضيه العقل والعقلاء، أو تقبل به الحكمة والحكماء.

- ٢ -

الكراهية الدينية.. وأنماطها:

الكراهية الدينية هي من أشد أنماط الكراهية حساسية وخطورة، وهذا بصورة عامة

هو من طبيعة كل أمر له علاقة بالدين أثراً وتراثاً، تفسيراً وتأويلاً، وذلك لأن الدين له علاقة ممتدة في التاريخ فهو أقدم شيء بدأ فيه وبقي مستمراً معه، وتأثر به التراث الإنساني في جميع أزمنته وعصوره القديمة والحديثة، وعلى تعدد واختلاف هويته وطبيعته، واتصل به الإنسان وتفاعل معه بطريقة تكاد تمس جميع جوانب حياته، وفي أدق تفاصيلها الجزئية واليومية، ومازال يحتفظ بتأثيره، التأثير الذي ليس من المرجح قطعاً أن ينقطع أو يتوقف.

والمقصود بالكراهية الدينية، ذلك النمط من الكراهية الذي يتصل بالمجال الديني ويتحدد به، إما من جهة الباعث والمنطلق، أو من جهة المعنى والتفسير، أو من جهة الرؤية والموقف. هذه ثلاث جهات قد تتصل أو تنفصل، وباتصالها أو انفصالها فإنها تساهم في هذه الحالة بتوليد كراهية، يصطلح عليها من حيث الوصف والطبيعة والمجال بالكراهية الدينية.

وفي الغالب تنشأ الكراهية الدينية متأثرة بالاختلافات التي لها علاقة بالدين، وذلك حين تتحول الاختلافات إلى كراهية، أو دافع نحو الكراهية، على مستوى النظر أو التعامل مع الآخر الديني، أو مع الآخر غير الديني بسبب له علاقة بالدين.

وفي هذا الشأن يمكن الحديث عن ثلاثة أنماط من الكراهية الدينية، هي:

النمط الأول: الكراهية الدينية التي تنشأ بسبب الاختلاف بين الأديان، ومنها الأديان السماوية الثلاثة الكبرى اليهودية والمسيحية والإسلام التي شهدت فيما بينها اختلافات تقلها لنا التاريخ، وما زالت موجودة إلى اليوم. والشعور بهذا النمط من الكراهية قائم وموجود بين أصحاب هذه الديانات جميعاً، وهذا يعني أن الكراهية الدينية ظهرت في إطار هذه الديانات الثلاث، وبين معتنقيها والمنتسبين إليها، وقد تضرر الجميع من هذه الكراهية، واشتكى ويشتكي منها، ويكفي معرفة ما بين أتباع اليهودية وأتباع المسيحية من كراهية متوارثة من التاريخ القديم، ترجع إلى الاتهام الذي وجهه المسيحيون إلى اليهود بصلب وقتل السيد المسيح حسب الرواية المسيحية.

النمط الثاني: الكراهية الدينية التي تنشأ بسبب الاختلاف بين المذاهب الدينية في إطار الدين الواحد، وهذا النمط من الكراهية ظهر في جميع الديانات السماوية، التي حصل في جميعها انقسامات وتعدديات مذهبية، تولد منها ما نسميه بالكراهية الدينية، وقد مرت على بعض هذه المذاهب في فترات تاريخية سابقة نزاعات وحروب دامية وقاسية، كالذي حدث في داخل المسيحية بين الكاثوليك والبروتستانت في ألمانيا خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الميلادي، وكانت من أشد الحروب الدينية التي حصلت في أوروبا، وعرفت هناك بحرب الثلاثين عاماً حيث دامت ما بين عام ١٦١٨م إلى عام ١٦٤٨م، وعدت سبباً في انطلاقة حركة التنوير في ألمانيا.

والشعور بهذا النمط من الكراهية موجود بصور مختلفة، وفي أزمنة مختلفة، وعند شرائح وفئات مختلفة، بين أصحاب هذه المذاهب، وعلى مستوى الديانات السماوية الثلاث، بما في ذلك أصحاب المذاهب في إطار الدين الإسلامي.

النمط الثالث: الكراهية الدينية التي تنشأ بسبب الاختلاف بين الجماعات والفئات في إطار المذهب الديني الواحد، باعتبار أن التنوع والاختلاف سنة طبيعية وتاريخية في الاجتماع الإنساني جارية حتى في إطار اجتماعيات المذهب الديني الواحد. وهذا النمط من الكراهية يتحدد في صورتين، في صورة ما يحدث بين بعض الجماعات التي تشترك من جهة الإطار العام في المرجعية الدينية، وتختلف في نظم العمل ومناهج السلوك.

وفي صورة ما يحدث بين بعض الفئات الدينية وغير الدينية بسبب اختلافات فكرية أو اجتماعية لها علاقة بالدين أو بالمجال الاجتماعي الديني، على طريقة ما يحدث بين بعض الإسلاميين وبعض العلمانيين.

وحقيقة الأمر أن المشكلة ليس في الاختلاف، وإنما في تحول الاختلاف إلى كراهية وإعطائه تسويغات دينية تحرض على التنافر والتباعد والتباغض، وقد يتطور الأمر ويصل الحال إلى الدعوة لعدم مجالسة المختلف معه، والابتعاد عن مجاورته، وترك توقيره ومكالمته ومجادلته، وعدم بسط الوجه له، وحتى السلام عليه.

ويلامس راشد المبارك منبع المشكلة في كتابه (فلسفة الكراهية)، بقوله (توجد فئة من الناس تحترف الكراهية، تزرعها وتسقيها وتنميها، وتدعو إليها، وتبشر بها، لقد صارت الكراهية في بعض النفوس نوعاً من العقيدة، لها جلال العقائد التي تجب حمايتها وصيانتها وإحاطتها بسياج يمنع أن تمس أو تناقش أو توضع موضع المساءلة والاستشكال) [٣].

وهذه الفئة من الناس قد توجد، ووجدت كما نعلم ويعلم الجميع في مختلف الديانات والمذاهب والجماعات والفئات، وهي تشترك مع اختلافها في طباعها الذهنية والنفسية، والتي تتسم في العادة بالتعصب والانغلاق والجمود.

- ٢ -

الكراهية الدينية.. وعصر العولمة:

منذ أن التفت العالم إلى هذه الظاهرة، أخذ الحديث عنها يتزايد ويتراكم بين مختلف الثقافات والمجتمعات، بصورة تلفت الانتباه بشدة إلى هذه الظاهرة، ويكشف عن تنامي الوعي والإدراك بخطورة وحساسية تداعياتها، في ظل مجتمعات تتميز بتعدديات متنوعة، دينية ومذهبية، عرقية وقومية، لغوية ولسانية، وهي السمة التي تطبع معظم أو جميع المجتمعات الإنسانية، فلا يكاد يوجد في مجتمعات العالم اليوم مجتمع خال من تلك التعدديات المذكورة، سواء كانت تعدديات أصيلة من داخل النسيج المجتمعي، أو تعدديات وافدة جاءت من مجتمعات أخرى قريبة أو بعيدة، خصوصاً مع الهجرة المتزايدة والعابرة بين المجتمعات والقارات بحثاً عن الرزق أو الأمن أو المعرفة، وبعد التقدم الكبير في تكنولوجيا المواصلات التي سهلت عبور وانتقال الناس من مكان لآخر رغم المسافات البعيدة التي تفصل بين الدول والقارات، وبعد التطور المذهل في شبكات الإعلام وتقنيات الاتصال التي فجرت معها ما عرف بثورة المعلومات، إذ جعلت بالامكان الوصول إلى المعلومات والمعارف لمعظم الناس وبطرق سريعة في أي بقعة

كانوا من بقاع العالم المترامي الأطراف، وازدادت معها حركة الأفكار العابرة بين الثقافات والمجتمعات.

وفي عصر العولمة تضاعف الوعي واشتد الاهتمام بهذه الظاهرة، حيث أصبح العالم بكل مكونات التعدد فيه بمثابة وطن لجميع الناس، أو هكذا يفترض من الناحية المجازية، ولأول مرة يدرك فيها الناس مثل هذا الانطباع، ويتعاملون على أساسه، ويتبادلون الحديث عنه بمختلف لغات العالم بوسائط مثل الأقمار الاصطناعية، والشبكة العالمية للمعلومات الانترنت، أو بدون وسائط.

أما العامل الأبرز الذي حرك بقوة، وفتح وعي العالم على هذه الظاهرة، هو الانبعاث الواسع والمخيف لأفكار ونزعات التعصب والتطرف التي لا تقبل التعايش مع الآخر مهما كانت طبيعة هذا الآخر وهويته، ولا التواصل معه أو الانفتاح عليه، ولا تتعامل إلا بذهنية الإلغاء والإقصاء، وبمنطق القسوة والصدام، وبمنهج الأحادية واحتكار الحقيقة المطلقة.

وقد أطلقت هذه الأفكار والنزعات موجة من الكراهية الدينية أثارت معها حفيظة العالم، وفي مقدمتهم العقلاء والحكماء في كل الأديان والمذاهب والجماعات، الذين أخذوا يحذرون من خطورة تفشي وتنامي مثل هذه الظاهرة، وعبورها وامتدادها بين المجتمعات الإنسانية، ويطالبون بتضامن إنساني وعالمي للوقوف بوجه هذه الظاهرة، والإعلان عن رفضها ومقتها والتشنيع بها.

- ٤ -

الكراهية الدينية.. وأنماط التعامل:

من الملاحظ أن هذه الظاهرة ظلت تتأثر هبوطاً وارتفاعاً بحوادث العنف والإرهاب التي ضربت مجتمعات عديدة، وامتدت من العالم العربي والإسلامي إلى أوروبا وأمريكا، وإلى الهند واستراليا، وبحسب مستويات ودرجات هذه الحوادث قوة وضعفاً.

حيث يلاحظ أن وتيرة الكراهية ترتفع كلما كانت حوادث العنف والإرهاب قوية وشديدة، وتكون أقل ارتفاعاً كلما كانت هذه الحوادث اضعف وأخف.

وهذا ما برهنت عليه أحداث الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م في أمريكا، فقوة وضخامة هذه الأحداث التي راح ضحيتها ما يزيد على ثلاثة آلاف شخص، ولدت معها ردة فعل قوية وشديدة من الكراهية تجاه المسلمين، وبشكل لأول مرة يحصل للوجود الإسلامي هناك، حيث عمت الكراهية بصورها المختلفة معظم الولايات، وبشكل مرعب ومخيف، وضعت أمن وسلامة المسلمين في خطر محدق، وأجبرت الكثيرين على البقاء في منازلهم، والمكوث فيها لفترات غير قصيرة.

وتكرر الحال ولكن بصورة أقل مع تفجيرات لندن الدامية سنة ٢٠٠٥م، حيث ذكرت الشرطة البريطانية أن جرائم الكراهية تضاعفت ست مرات في لندن أعقاب تلك التفجيرات التي راح ضحيتها خمسون قتيلاً، وأوضحت الشرطة في بيان لها أن نحو ٢٧٠ حادثة وقعت في ذلك الحين، تمثل معظمها في شكل إساءات شفهية، بالإضافة إلى اعتداءات وصفت بالبسيطة، وهجمات على ممتلكات للمسلمين.

وأمام تفشي هذه الظاهرة، تعددت صور وأنماط التعامل معها في النطاق العالمي، ومن هذه الصور والأنماط، محاولة رصد هذه الظاهرة على مستوى العالم، وتقديم تقارير ودراسات وصفية وتحليلية حولها، على طريقة ما أنجزه مركز بيو للسلوكيات العالمية بواشنطن في تقريره الذي أصدره منتصف عام ٢٠٠٧م، وجاء في (١٦٨) صفحة مع بيانات البحث الملحقة، وأشار إلى انخفاض في نسبة الكراهية الدينية والعرقية على مستوى العالم مقارنة بما كان عليه الوضع عام ٢٠٠٢م، استناداً إلى استطلاعات رأي أجريت في مختلف أنحاء العالم.

ومن هذه الصور والأنماط أيضاً، ظهور هيئات ومنظمات تعنى بهذه الظاهرة، كمنظمة سفراء السلام التي أعلنت عن وجودها في الولايات المتحدة الأمريكية، وحملت

على عاتقها حسب خطابها الخلاص من الكراهية الدينية، والتأكيد على التسامح بين أتباع الديانات، ولهذا الغرض قام وفد منها في ابريل عام ٢٠٠٥ بزيارة الأزهر بالقاهرة للتوقيع على وثيقة وضعتها المنظمة بعنوان (وثيقة الحقوق الدينية)، وكانت قد أرسلتها من قبل إلى شيخ الأزهر محمد سيد طنطاوي مع دعوة للتوقيع عليها، وفي نهاية الزيارة قيل أن الشيخ طنطاوي صادق على الوثيقة بكل ما جاء فيها، وطلب من نائبه الشيخ فوزي الزفزاف التوقيع عليها بصفته رئيس لجنة الحوار بين الأديان.

وتقرر الوثيقة أن اللجوء إلى العنف لتأكيد وجهة نظر دينية، أو لإجبار آخرين على اعتناقها هو أمر مرفوض بتاتاً، كما تقرر أن لكل إنسان بغض النظر عن انتمائه الديني أو العرقي أو الوطني الحق في أن يعيش بسلام مع جيرانه مهما كان معتقدهم.

وقد انطلقت الوثيقة من خلفية أن الجواب الوحيد للخلافات الدينية يكمن في الحوار المبني على الاحترام المتبادل بين أتباعها، وليس في اللجوء إلى العنف.

ومن هذه الصور والأنماط كذلك، لجوء بعض الدول والحكومات إلى وضع قوانين وتشريعات تجعل من الكراهية الدينية جريمة يعاقب عليها القانون، وهذا ما أقدمت عليه بريطانيا في يونيو ٢٠٠٥م، بعد تفجيرات لندن، وأثارت بها آنذاك جدلاً ولغطاً بين البريطانيين أنفسهم، كما أقدمت على مثل هذه الخطوة جمهورية أوزبكستان في يونيو ٢٠٠٦م.

هذه بعض صور وأنماط التعامل مع ظاهرة الكراهية الدينية، بقصد الحد منها ومواجهتها والقضاء عليها، مع كل ذلك يبقى أن أمضى سلاح لمواجهة هذه الظاهرة هي الديانات نفسها، وبالذات الديانات السماوية التي جاءت أساساً لتهذيب الإنسان وتزكيته وتعليمه، واقتلاع نزعات وجذور الشر منه وتنمية نزعات وجذور الخير، ولتخرجه من الظلمات إلى النور وهذه هي المفارقة.

الهوامش:

١ - إبراهيم مصطفى وآخرون. المعجم الوسيط. القاهرة: مجمع اللغة العربية، ص ٧٨٥.

٢ - راشد المبارك. فلسفة الكراهية، بيروت: دار صادر، ٢٠٠١م، ص ٣٣.

٣ - راشد المبارك. المصدر نفسه، ص ٢٧.